فن بتهوفن وتحليل اعظم تلحيناته

اكتب هذا المقال الثاني عن بتهوفن في العشرة الايام الاولى من شهر مارس ، وصحف الغرب توافينا ببرامج الحفلات التي يعدّها اهل الفنّ والموسيقى للاحتفاء بذكرى صاحب اليوبيل في النمسا وفرنسا والمانيا وايطاليا وفي سائر انحاء اوربا واميركا . وليست القاهرة دون عواصم العالم اهتماماً بهذا اليوبيل . فقد اعلن في الصحف السيارة عن حفلة ستقام في دار الاوبرا تحت رعاية جلالة الملك للاحتفاء بذكرى بتهوفن مساء ٣٠ مارس الجاري تعزف فيها الحان مختارة من وضعه ، ويخصص دخلها للجمعية الاسعاف العمومية . ولاشك ان سترى عاصمتنا حفلات اخرى من هذا القبيل في الاسبوع الجامع بين اواخر مارس واوائل ابريل

وقوام هذه الحفلات طبعاً موسيقى بتهوفن . وقد يقتصر في بعض البرامج على طائفة من القطع ذات الصلة المعنوية الاساسية فيما بينها . فهذه للسوناتا ، وتلك للسمفونيا ، واخرى للتلحينات الحزينة والجنائزية ، وغيرها للاناشيد الدينية ، وغيرها لنتف مستخرجة من الروايات الغنائية (اوبرا) الخ

لانّ فنّ بتهوفن غنيّ بتنوعهِ وتفرّعهِ غناهُ بطرازهِ الفاخر ونَفَسهِ العالي . ولم تكن وفرة النتاج والابداع لتغضّ من جودة الاتقان وطرافة الابتكار . بل هو في كلّ فرع من ذلك الفنّ ، وفي كلّ غصين من ذلك الفرع ، اهتدى الى حسّ جديدٍ يعالجهُ ومعنىً مستحدثٍ يشدوهُ . مع انهُ لم يكن لهُ من منهل يرتادهُ غير هوَّة نفسهِ ورحبة ماضيهِ . هناك يسترقُ السمع من هاتيك الاصوات السائلة و« يلمسها » شوقهُ بعذوبة الذكرى ، ويعكف عليها يعالجها ويرعاها حتى ينال منها اقصى الاسرار ومنتهى الغايات . ويرسلها بعدُ نغمةً تترنح بمرح الطفولة وسذاجة الغفلة وانس العذوبة . انما ينوح في طرازها صوتٌ يحدّث بانّ اليوم غير الامس ، وبانّ الذكرى وليدة شوق استحال تحقيقهُ في عالم المحسوس فانطلق يستطلعُ بوادر الرجاء والامكان في عالم اسمى واشرف . على انّ ذلك الانتحاب مهذبٌ مثقفٌ يتسترُ من نفسهِ بنفسهِ لا تشوّههُ المرارة ولا تقلقهُ الحدّة . فاذا تفاجئك منهُ بغتة نفحاتٌ وفوراتٌ من الابتهاج والحبور تحار من ايّ السبل تنفذ الوجيب الى الانشاد . وطريقة بتهوفن هذه في اغفال جواهُ وهو في اشدهِ عجيبة الفعل في النفس الموسيقية وكثيراً ما تجلب الدمع الى المآقي

لكلّ نغمة عنده معنى ، ولكل نبرة مساجلة ، واذا هدأت الاوتار وسكتت الآلات فسكوتها مفعم بما يهيج القلوب وحنيف الاسرار واعلان الخفايا . ذلك ان بتهوفن العالم في اصول الفن ، البارع في تشريح الانغام ونسجها وتعبيرها ، يخدمهُ المفكر في معاني الحوادث وتصاريف الاقدار والفني الذي يلف الحقائق القاسية بدثار من الملاحة والرونق والبهاء ، والرجل المتوجع المنفعل بمقتضيات حياته وباعمال البشر ، والمتحمس المعظم للموسيقى الذي يرى مزاولتها ضرباً من طقوس العبادة . وهو الذي عرّف فنهُ التعريف التالي :

« الموسيقى « وحي » يفوق كل علم ويسمو على كل حكمة . وهي المقدمة الوحيدة المجرّدة من الجسديات والمحسوسات ، التي تفضي بنا الى ملكوت المعرفة الربانية . ذلك الملكوت المحيط بالانسان في حياته هذه التي تمزّقها المقاومة والنزاع ، والذي لا يجهر بخفاياه ويكشف من كنوزه الأ عن طريق هذا العامل الاثيري الشفاف المعروف باسم الموسيقى »

***

تصانيف بتهوفن جزيلة وافرة لا تتيسّر الاحاطة بها ، ويتعذّر ايراد قائمتها بالعربية لعدم وجود هذه التآليف في لغتنا ولانعدام اسماء فنية واصطلاحات موافقة لها بالتبع

ولكن يحسن الالماع إلى انّ منها الخصيص بالاوركسترة الكبرى التامة إذ تتعاون في التوقيع الآلات الوترية والآلات النحاسية جميعاً . ومنها ما هو لفرق اوركسترة صغيرة أو جزئية يعزف فيها الفريقان من الآلات . ومنها ما هو مفرد لهذه الآلات او لتلك ، وما هو للبيانو او للارغن . ومنها ما هو للموسيقى الصوتية اي الانشاد . مثل « القداس الاحتفالي » الشهير والروايات الغنائية (اوبرا) والاجواق الوطنية والاناشيد الدينية والرثائية . ولعلّ الشائع من هذه الموسيقى الصوتية هو مجموعة الاغاني الست والستين الخصيصة بالبيانو والمجموعات الاخرى السبع المفردة للاغاني الاسكتلاندية والانجليزية والايرلندية والفرنساوية والايطالية . وجميعها ثلاثية التلحين ، اي للانشاد الصوتي والتوقيع على البيانو والعزف على الكمنجة الكبيرة (violoncelle) في آنٍ واحد

لا بدّ ان نقدة الفنّ في اوربا سيتناولون مؤلفات بتهوفن بالتحليل والبحث فنرى من ذلك فصولاً في الصحف والمجلات خلال الشهور التالية . غير ان الذين كتبوا عنهُ إلى اليوم اتفقوا على انهُ « تطوّر » فاجتاز ثلاث مراحل كبرى وانهُ احدث انقلاباً وتجديداً في جميع ما صنّف فتجلّى على قمة الابداع في تلحيناته الاخيرة

وابدع ما صنّف سمفونياتهُ التسع التي وصفها فاجنر (هذا العظيم الآخر الذي يمكن

اقتران اسمهِ باسم بتهوفن) بقولهِ « ان بتهوفن دوَّن بها تاريخ الموسيقى وادمج فيها جميع ألحان العالم » . والسمفونيا في اصطلاح أهلها قطعة موسيقية من صيغة السوناتا على انها اوفى بياناً واجل اكتمالاً ، وذات نبذٍ واقسام تتفاوتُ بين الاسراع والتباطؤ لكلٍّ منها « روي » موسيقيّ خاص . وقد وضعت لتوقيع الاوركستره الكبرى . ومع ان سمفونيات بتهوفن تمثل عواطف ومدركات مختلفة فهي كذلك سجلٌّ لما كان يفكر فيهِ ويشعر بهِ لدى تدوينها وانشائها

***

أما السمفونيا الاولى فعلاقتها باخواتها واهية . وليست في اصول الفنّ والاصطلاح الموسيقي والمضمون الفناني لتظهر مقدرة مؤلفها . واما السمفونيا الثانية فعلى النقيض . اذ هي تتوهج بحرارة الشباب ونبل العواطف ، وتنشر اوهام الرجاء ورؤى الحياة ، وتجاهر بعقيدة المجد والحب والتضحية . . . فكم من استسلام في ثقة ، وكم من جولةٍ في اطمئنان ، وكم من احكام في ارتباط الانغام وتجاورها ، ويحقّ دعيت هذه السمفونيا انشودة الشباب الولهان الحالم المتأمل

وفي انتظام العدد تأتي السمفونيا الثالثة المدعوة بسمفونيا البطولة ، وفي حكايتها ما يوضح جانباً من خلق بتهوفن الابيّ ، رغم فقرهِ ورغم حاجتهِ . فقد باشر هذا التلحين بدعوة من برنادوت يومئذ سفير فرنسا في النمسا ، وتحت وقع اسم نابوليون الذي كان يكبره الموسيقيُّ ويرى فيهِ مثل العبقرية الاكبر في ذلك العصر ورجل التفوّق الشخصي والديمقراطية الخالصة . فجعل لسمفونيتهِ هذا العنوان « الى نابوليون بونابرت . . . من لدويج فان بتهوفن » . وكان بونابرت اذ ذاك قنصلاً اوّل في الجمهورية الفرنساوية الجديدة . وما خطّ بتهوفن آخر سطرٍ منها في سنة ١٨٠٤ حتى ذاع الخبر بأنّ القائد العظيم قد جلس على عرش الملوك وتوّج امبراطوراً على الفرنسيس . والفنيُّ الذي كان يعتقد بأن اقدام نابوليون وبطولتهُ نتيجةُ حبهِ لوطنهِ وسعيٌ في سبيل نشر الحرية في العالم — خاب ظنهُ عند تلقي هذا الخبر ، وحنق على أنانيةِ القائد فمزّق عنوان السمفونيا الاول واستبدلهُ بآخر يدلُّ على خيبتهِ في الاعجاب بهِ ، فدعاها « سمفونيا البطولة للاحتفاء ، بذكرى رجلٍ عظيم » . ولم تُنشر الاَّ سنة ١٨٠٦

وهي تمثلُ في الحانها علواء جميع الغزاة والفاتحين منذ اول نشأتهم الى تغلبهم في وقائعهم ، الى ارتقائهم ذروة المجد ، بعد مرورهم بكل عذابٍ وكل نكالٍ يهيئهُ المتفوقين

عجزُ الخاملين وغرورهم . وفيها نبذةٌ تستعملُ « كارش» جنائزي وكأنَّ بها شيَّع بتهوفن ذلك الرجل الذي غزى العالم ، الى لحده قبل ان ينطفئ سراجهُ في منفاهُ البعيد بسبعة عشر عاماً . وهي عميقة الحزن مترعة بالغمّ والحسرات الرائعة الهادئة . فلا يخفُّ وقعها الرهيب إلاَّ في النهاية اذ يرتفعُ البطل بالموتِ الى سماء الغبطة الدائمة

وقد اهدى السمفونيا الرابعة إلى جوليت جيشار ، احدى النساء اللاتي احببنَ بحرارةٍ في العواطف وطهرٍ في الخيالِ . فوصف فيها الحبّ المتراكم على نفسهِ المفطومة المحرومة ومقدار ما يشعر بهِ من الحلاوة الرضية والسحر الفتّان . وفي هذه السبيل الملتوية بين مرارة الحرمان ووعود الغرام نصل الى السمفونيا الخامسة ،اشهر اخواتها ومن اروعهنَّ جمالاً . وضعها اثر تلقيهِ تلك الضربة الظالمة من يد القدر ونفيهِ عن عالم الهمسات والنبرات فقد جثمت نفسهُ عندئذٍ حول وقع القضاء واخذ يتساءل عن غاية الحياة وسبب الالم ، ومضى يتوغلُ من استفهام الى استفهام لعلهُ يعثر على الجواب . . . ومن ثمَّ الجوّ الروحاني الخفيّ المخيم على تلك الالحان . وهو الذي حمل اهل الباطنية والثيوصوفية في الغرب على ضمّ تلك القطعة الى موسيقاهم فدعوها «سمفونيا الكارما » . والكارما عندهم ضربٌ من القدر [نحونا معناها كما نحونا لفظها عن الهندية] يعني اتصال العلة بالمعلول والنتائج بالاسباب اتصالاً لا يقبل التوسط والانفصال

وقد وصف فاجنر هذا الطور من فنّ بتهوفن بما يلي : « صُمَّ بتهوفن فتلاشى العالمُ حيالهُ هو الذي لم يكن يصلهُ بالارض غير حاسة السمع فيها كان يعيش بعد انقطاعهِ عن كلّ ما عداها . والآن عندما يسير هـذا الحالم المأخوذ في شوارع فينا يحدّق فيما حولهُ بعينيهِ الكبيرتين ، ماذا تراهُ يبصر من كلّ ذلك ، هو الذي يقطن ضمن جدران نفسهِ الحافلة بالاحلام والانغام ؟ ايمكن ان يكون في العالم موسيقيٌّ بلا سمع ؟ وهل في وسع انسان ان يتخيّل رسَّاماً بلا نظر ومصوّراً بلا اصابع ولا يد ؟ على تلك الحال ودون ان تقلقهُ الآن جلبةُ الحياةِ ، ها هوذا متفرغٌ للانصات إلى ما يدوي ويترنم في صميم ذاكرتهِ ، مساجلاً عالماً لا يخلقهُ لهُ احد . عالم يعيش في رجل ! بصرُ الموسيقيّ وسمعهُ يتحوّلان الى بصيرةٍ ترى الاشياء من الداخل . فيكنهُ جوهر البرايا ويناجيه ضمير الوجود ويتكشفُ لهُ ضياءُ الجمال الهاديّ - الآن اصيخ بنفقهُ سرّ الغاب والنهر والروض والاثير الازرق ، والجماهير المبتهجة ، وغرام العشّاق ، ونشيد الاطيار ، وسوابح الغيوم ، وزئير العاصفة ، ولذاذة الهناء . وفي هذا الوقت وفي هذا الصفاء العجيب تنتشرُ عبقريته في

كل ما يتخيل وتتفاعل في كل ما يرى - فالقوة المولدة عنده في أشدها ، وجميع آلام الحياة ترتد عنها حسيرة بعد إنالتها وقوداً لزكوتها. لقد بسط في هذه السمفونيا الخامسة فكره المكنون وآلامه المبرحة ، وغيظه المكظوم ، واحلامه المتناثرة بأنكسار القلب والقنوط الكئيب . قصيدة وجيعة . بل مرثاة قبل الموت لرجل يختجنه مقدور عنيد ، وكل مغامرة في سبيل الخلاص باطلة . وحياة الرجل تنقضي يوماً بعد يوم بين التمرد والامتثال بين الآلام ان يده ما فتئت مجاهدة ، وجبهته عالية ، ووجهه في مصابه يقابل وجه الشمس ولكن في هذه الصفحات التي لا مثيل لها بنشيد جبار للمجد والانتصار تكسر فيه ... صنية متبلجة الى ابراز النعيم ! »

***

اما السمفونيا السادسة فهي انشودة الطبيعة . فما غنت الاوتار حياتها ، ولا عزفت الآلات او رتلت الحناجر بمثل هذه الانغام النقية لامتداح جمال الاشياء والبرايا والموجودات . بلاغة وايّ بلاغة في تلك الجمل المشبعة بالتلوين والرونق والرواء ، وتلك الصور الناطقة بصدق الحياة ، وذلك النور الرحراح ، وتلك العطور الفائحة من مقاطع الانغام في منبسط الآفاق . وذلك السكوت الرضي عند منعطفات الغياض وفي ظل الغصون . وذلك المرج الوادع المتراخي الاطراف تحت سيول الالحان المصقولة كالمرايا المجلوة كالاشعة . وإذ يتم وصف الطبيعة يأتي الانسان ، رجل الخلاء القوي الجلود المؤمن ... فتفاجئه اهوال العاصفة ويشعر بالرعب والوحدة والفزع ، ثم لا يلبث ان تعود اليه الطمأنينة فينشد نشيد الشكران

والسمفونيا السابعة مهداة الى الاهة الوزن والتناسق والأنغام الرامزة الى الاحتمال والصبر الباسم عند تراكم الاوصاب. إنك تسمع في الاوركسترا شهيقاً وزفيراً وتكاد تلمس العبرات المتناثرة ، ثم تجتمع الالحان في اغنية حزينة تقبض على القلب بقابض الغصة والحسرة والجوى . كأنما الانسانية كلها تعاني دمعاً ونكالاً في تسلقها سبيلاً متعرجاً شائكاً كل خطوة فيه مرحلة عذاب . ولكنها لا تفقد الايمان وتظل متطلعة الى الانتصار في النهاية وتتمثل طيفه يلمع بعيداً كوميض الرجاء

والسمفونيا الثامنة انشودة البشاشة والرضا . لان بتهوفن يرى ان الرجل الخالص النية الصافي الطوية اذا هو استسلم لطمأنينة النفس يظل بشوشاً راضياً مما يلقى من الحياة ومن الناس . وفي هذا التلحين كثير من الحلاوة الرائقة والدلال اللطيف حتى تخاله اغنية

ينشدها الاطفال وهم يقطفون الازهار في صباح ربيع بهيّ .

وهكذا من اعجوبة الى اعجوبة ومن تحفة الى تحفة ينتهي بتهوفن الى تحفته الفريد الاعظم الذي قال فاجنر على ذكره « ليس منا غروراً وسذاجة ان نحاول تلحين السمفونيا مع علمنا ان منتهى ذلك ارسلهُ بتهوفن في السمفونيا التاسعة التي هي البحر الفيّاح بهولها وجمالها . وكل ما نلحنهُ بعدها فأقأة عيّ امام تلاطم الرياح وهدير الامواج »

هذه السمفونيا التاسعة من الاهمية بحيث افرد لها الناقد الموسيقي « ماتيو باروسو » كتاباً تامّاً في ما يزيد على مائتي صفحة . ففي الاوضاع الاصولية وفي بلاغة البيان وعظمة الوحي جميعاً ارتفع بتهوفن الى علوّ شاهق باذخ لم يدانهِ قط مظهر من أيّ المظاهر الفنية . وأفرغ فيها من المدركات الروحية ونزعة الانسان الى الاتصال بالله وتعرّف الروح العليا الشاملة حتى ان السامع ليعتريهِ بحرانٌ وينتابهُ الخوفُ والوجل كأنما هو وقف عند عتبات الغيوب ليطلع على ما وراء هذه الارض من الاسرار الخفية الباهظة . ويخيّل اليك ان مئات الاصوات والمنشدين والعازفين يتقاطرون جماعات وافراداً من اقطاب الارض السحيقة ليتلاقوا ويتعاونوا على ارسال نشيد واحد عظيم ، هو نشيد الاطمئنان عند الفزع والثقة حيال الرهبة . لان هذه القطعة الخطيرة نشيد الفرح الشريف العالي ، نشيد الاستئناس بالكائنات المجهولة والاستسلام للارواح النقية القادرة

***

هذه صورة ضئيلة من بتهوفن الذي لا تجيد تصويرهُ الاّ مآثرهُ . هو اكبر موسيقيّ في التاريخ وليس ليعلو عليهِ احدٌ وجلّ ما يمكن هو ان يرتفع الى سماه عبقريٌّ آخر او عبقريان اثنان من بعض وجوه فنها . فهو حقيقٌ بكل حفاوة جدير بكل اكرام واعجاب . ويحسبهُ هيبولت تاين الناقد والمؤرخ الفرنسي ، رابع الاعمدة العظيمة التي تقوم عليها قبّة الفنّ . اما الثلاثة الآخرون فهوميرس اليوناني ، وميكلانجلو الطلياني وشكسبير الانجليزي

هذا هو بتهوفن . فلتعزف المعازف ، ولتنشد الاجواقُ ، وليخطب الخطباء ، وليكتب الكاتبون ، فشيءٌ من ذلك لن يتعدى اليهِ صداهُ عن طريق السمع الانساني . اما روحهُ التي غاصت في تلك الاعماق البعيدة من الالم الاصمّ والحرمان الابكم ثم حلّقت بعبقريتها وفنها في تلك الاجواء العالية فماذا عساها تصنع اذ تشهد مظاهر التكريم والتعظيم ؟

انها تذيب ما تشعر بهِ في ابتسامةٍ صغيرة بطيئة ... ابتسامة العبقريّ الذي خبر الناس والحياة فتألم ، وتحوّل الى منفى نفسهِ فابدع

« م »